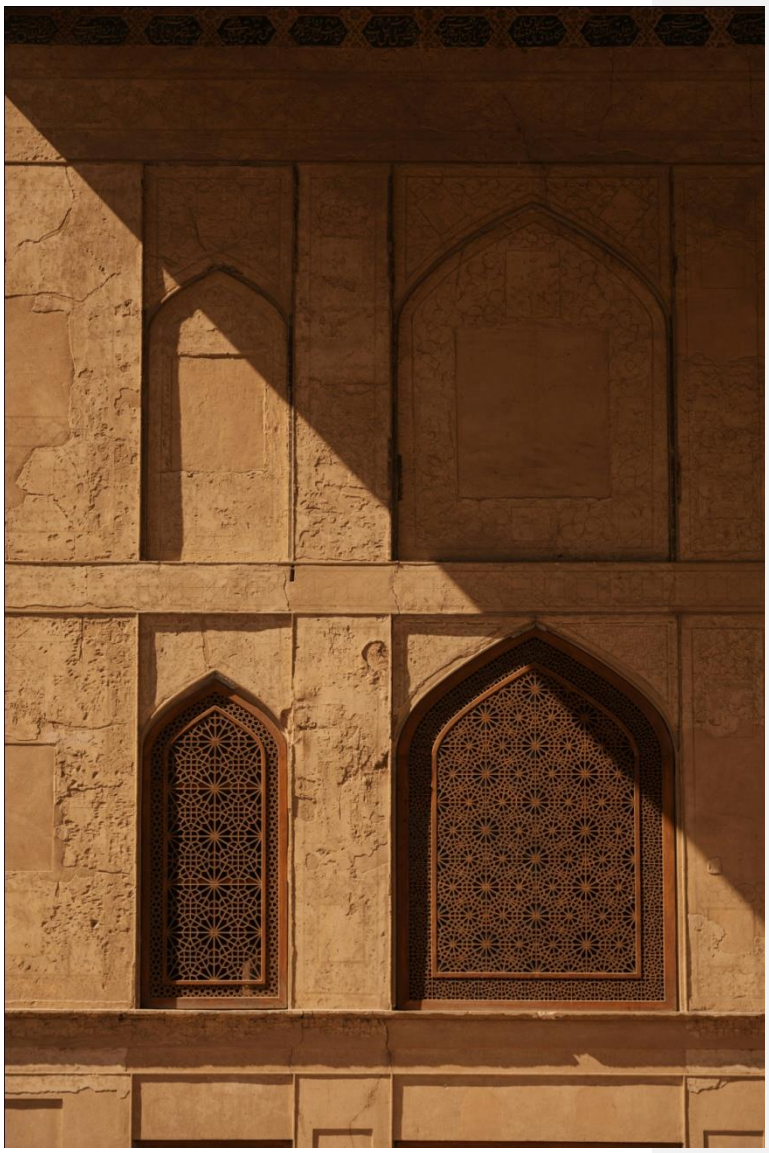

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

من يحول بينك وبين التوبة؟

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٢ / ٤ / ١٤٤٥هـ

من يحول بينك وبين التوبة؟

بسم الله الرحمن الرحيم..

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله..

من خلال محاولاتنا لاستقراء قواعد القرآن الكريم فيما يحدث حولنا من أمور، نرى أن القران دوما يلفت أنظارنا إلى عالم الغيب وما وراء الحدث، فيحولها عن الصورة المادية التي تغلب، وهناك أيضا بعد آخر يحملنا إليه الوحي، سواء كان قرآنا أو سنة، يقول تعالى:{إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ..} (محمد، 7) ويقول أيضا عزّ وجل:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ..} (الرعد، 11) هذه الآيات قواعد قرآنية للحياة،وهناك سنة كونية من سنن الله عز وجل، بأنه لا يمكن أن يكون التغيير أو النصر أيا كان شكله، إلا من خلال خطوة أولى من العبد، وهو الشبر الأول كما يسميه بعض العلماء استنادًا لقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-:[من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، من أتاني يمشي أتيته هرولة] (1)

إذن كل هذا يدلنا على أن الخطوة الأولى لابد أن تكون منك، وإذا عرفنا هذا، فسيُطرح السؤال الأهم، **كيف نحول هذه الخطوة إلى واقع ملموس؟** وسؤالنا اليوم "**من يحول بينك وبين التوبة؟**"

هذا السؤال المهم الذي يهم كل من لم يتخذ قراره بالتوبة بعد، والذي اتخذه منذ سنوات، والذي يتخذه كل ليلة أيضا، قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-:[فإنَّهنَّ يجتمِعنَ على الرَّجلِ حتَّى يُهْلِكْنَهُ] (2)

نحن بحاجة للتوبة من كبائر الذنوب لمن لديه كبيرة، ومن صغائر الذنوب والسيئات، وحينما نتحدث عن التوبة يرِد إلى أذهاننا نبي الله نوح -عليه السلام-عندما أتى قومه الكفرة المشركين، لم يكونوا مسلمين أو أنهم كانوا على عبادة وبقي أن يستغفروا الله فقط، ومع ذلك جاءهم بأشهر آية في سورة نوح قوله عز وجل: {فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا}(نوح، 10)

فلماذا بدأ بالاستغفار؟ لأن الذنوب قد تكون حاجزا بينك وبين أي قرار مهم في حياتك، وهي سلاسل تربطك عن أي عمل مثمر قد تقوم به، وقد جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسأله: [رجلًا لم يدع شاردة ولا واردة إلا وفعلها فهل له من توبة؟ فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: "تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟" فقال: يا رسول الله أما أنا فنعم، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: "إذًا يغفر الله لك سيئاتك ويبدّلها حسنات" فنسى الرجل ما كان يقول، فقال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: "وغدراتك

1أخرجه البخاري

2صححه الألباني

وفجراتك"] [3] فلم يدع شاردة ولا واردة، أي لم يدع نوعا من أنواع الذنوب إلا وقام به، فإن كان يشهد أن لا إله إلا الله غفر الله له كل ما أتى به.

و عمرو ابن العاص عادى النبي -عليه الصلاة والسلام- لأكثر من ثمانية عشر سنة، ولم يكن يعاديه معاداة طبيعية، بل كان يقول عن نفسه: "ما كان لي أمنية إلا أن أقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-" وكان يقول: "فكانت أعظم أمنية لي أن أقطع رأس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما كان أبغض وجه لي إلا من رؤية وجه النبي -عليه الصلاة والسلام-" ثم فتح الله على قلبه فأسلم، فلما أسلم وجاء للنبي -عليه الصلاة والسلام- وقد كان بصحبة خالد بن الوليد ومجموعة من الصحابة، فيأتي كل واحد منهم ويبسط يده ليبايعه النبي -صلى الله عليه وسلم- ويذهب، ولما جاء دور عمرو بن العاص، مد النبي -عليه الصلاة والسلام- يده، فقبض عمرو يده، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام- : ["مالك يا عمرو؟ قال: يا رسول الله أبايعك على أن يغفر الله لي ذنبي، فقال: "أوَلم تعلم أن الإسلام يجب ما قبله!" (وفي رواية يهدم ما قبله) وأن الحج يهدم ما قبله وأن التوبة تهدم ما قبلها"] [4]

لا شيء يتعاظم على الله عز وجل مهما كان باعك في الشر طويلا، فالله يغفر لك كل ما سبق من ذنوبك في اللحظة التي تتوب فيها..

وفي الحديث: [أنَّ نَاسًا مِن أهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قدْ قَتَلُوا وأَكْثَرُوا، وزَنَوْا وأَكْثَرُوا، فأتَوْا مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَقالوا: إنَّ الذي تَقُولُ وتَدْعُو إلَيْهِ لَحَسَنٌ، لو تُخْبِرُنَا أنَّ لِما عَمِلْنَا كَفَّارَةً] [5] أي أنهم يبتغون التغيير والتوبة فهل يغفر هذا الدين لهم كل ما فعلوا؟ فنزلت فيهم هذه الآيات، قال الله عزّ وجلّ: **{وَٱلَّذِينَ لَا يَدعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقتُلُونَ ٱلنَّفسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلحَقِّ وَلَا يَزنُونَ وَمَن يَفعَل ذَٰلِكَ يَلقَ أَثَامًا * يُضَٰعَف لَهُ ٱلعَذَابُ يَومَ ٱلقِيَٰمَةِ وَيَخلُد فِيهِۦ مُهَانًا}**(الفرقان، 68-69) والآيات تتكلم عن الكبائر من الذنوب من قتل وزنا وشرك، فمن فعلها يلقى أثاما ويخلد في العذاب ويعاني الذل والصغار، ثم يقول الله عز وجل في الآية التي تليها: **{إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِم حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا}**(الفرقان، 70-71) **فإذا أخذت القرار بالتوبة وحولته من مجرد حالة ذهنية إلى عمل تقضي فيه ما تبقى من حياتك، فهذه هي التوبة الحقيقية.**

وهناك فرق بين التوبة وبين ترك الذنب، فمعنى تاب في اللغة: أي رجع، وتاب وآب وأناب كلها تفيد الرجوع عن الذنب، وعدم العودة إليه مرة أخرى.

3صححه الألباني

4أخرجه مسلم

5أخرجه البخاري

وقال الله عز وجل:{إِنَّمَا ٱلتَّوبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَٰلَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيب فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيهِمۗ..}(النساء، 17)ومن قريب تفيد عدم الرجوع بعد الذنب مباشرة، فباب التوبة مفتوح لا يغلق في وجهك ما لم تغرغر الروح، وهذا من كرم الله عز وجل.

قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: [**قالَ اللَّهُ تبارَكَ وتعالى يا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشركُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً**][6]لاحظ ما جاءت به الأوصاف فقال "عنان السماء" ويقصد به المساحة بشكل عامودي و"ملء الأرض" المساحة بشكل أفقي، فكل هذه المساحات الواسعة أفقيا وعاموديا، لو جئت بمثلها ذنوبا غفرها الله لك، فالله يحب من عبادة التوبة ويحب التوابين.

وحديثنا اليوم خصوصا لمن يظن نفسه خارج نطاق التوبة، فلا يظن عبد خالٍ من الكبائر، مصلٍّ صائم ولديه بعض الصغائر والذنوب، أنه خارج هذا الحديث، فنحن جميعنا مطالبون بالتوبة لأسباب عدة، ومن يشعر بذلك ولديه من شعور أنه يقوم بعبادته على نحو جيد، ويشعر بالرضى عن علاقته بربه وعن واقعه، فلم يفهم معنى التوبة

النقطة الأولى:

يقول العلماء: "**لا تنظر إلى صغر المعصية، لكن انظر إلى عظمة من عصيت**" فلا تقس الأمور بمقياسك أنت، والنبي -عليه الصلاة والسلام- يقول: [إياكم ومحقرات الذنوب] ([7])

انظر إلى عظمة من عصيت، وانظر إلى الجبار القوي المتين، وتأمل لو أن الله عز وجل قد تخلى عنك، ولم يؤيدك ولم ينصرك، ولم ينزل السكينة على قلبك، ولم يثبتك ولم يرضيك، تخيل عيشك في هذه الحياة من غيره، فكيف ستستطيب؟ نحن بحاجة للتوبة من أجل أن نغير من حياتنا، فتكون حياة قائمة على مراد الله، وعلى ما يريده منا، لا على ما تهواه أنفسنا، أن تكون عبدا مسلما، بأن تسلم أمرك لله عز وجل، قال الله عز وجل:{أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعضِ ٱلكِتَابِ وَتَكفُرُونَ بِبَعضِ}(البقرة، 85.) فالدين لا على المزاج والهوى، ولذلك قال الله عز وجل: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور،31)وتوبوا فعل أمر، والتوبة وظيفة العمر، فرضها الله علينا ويريدها منا، فيخاطبنا الله جميعا، فلابد لهذا الأمر أن يشغل أذهاننا وقتا طويلا، من أي ذنب أتوب؟ ولماذا أتوب؟

وقد يظن بعضهم أن خيار التوبة من عدمها متاحا، نعم الله قد جعل خيار التوبة بأيدينا، ولكن اتخاذ قرار كهذا يحملك مسؤوليته، فإن أردت الاستمرار على معصية فستدفع ثمن هذا، وإن أردت التوبة فستجازى على هذا أيضا، ومن يعمل خيرًا يُجزَ به، ومن يعمل شرًّا يُجزَ به أيضا،

6صححه الألباني

7صححه الألباني

يقول الحسن البصري -رحمه الله-: "أيها العبد الآبق عد إلى مولاك، فمولاك يناديك بالليل والنهار، من أتاني يمشي أتيته هرولة" والآبق أي أيها الهارب، أيها الهارب من ربك لا تريد التفكير بنقصك، لئلا يشعرك ذلك بتأنيب الضمير والضيق، لا تريد الإحساس بالخوف، ولكن أيها الهارب لو هربت وهربت ستعود لله عز وجل إما مكرها أو طواعية، فعد إلى مولاك عاجلا قبل الغد، فنحن نتوب أولا، لأن الله فرض علينا التوبة وأمرنا بها، ولأنه لا يمكن أن تكون مسلما صحيحا إلا بتوبتك من كل ذنب بينك وبين الله.

النقطة الثانية:

لماذا نتوب؟لأنك لو لم تتب، ولو أسلمت نفسك لهواك وذنوبك، عشت عيشة البهائم، وتخيل أنك الفلان الفلاني ذو الشخصية المرموقة، وصاحب تلك السيرة الذاتية، والمنصب الفلاني، ونهايتك مساوية لحياة أي من تلك البهائم، لأن جل قضيتك كانت في المأكل والمشرب وجمع النقود والجاه والسمعة والمنصب، كمن يعيش في حظيرة دون أي بعد أخروي، ودون احتساب لما عند الله والدار الآخرة، ودون فطم النفس عن ذنب لا يرضاه الله عز وجل، فهناك من لا يعلم أنه يعيش هذه الحالة، ولا يعلم أنه بحاجة للتوبة، وعينه لا ترى إلا أعمال الخير الذي أتاها، ولا يرى جبال السيئات من ذنوب الخلوات والمجاهرة بالمعاصي، ومن توثيق لحظة الذنب من غير انتباه، وهذا كله من الذنوب، وهو نوع من الغفلة التي

قال الله عز وجل عنها في القرآن: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ* مَايَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}(الأنبياء، 1-2-3)معرضون كالإعراض عن النصح، وكلمة الخير، حتى لو سمع بأذنيه أعرض قلبه، ويلعبون كالإغراق في الماديات وإشغال الناس باللعب واللهو والطرب عن الحقائق وما سيصادفهم في الدار الآخرة، لاهية قلوبهم عن الله عز وجل، فاقترب الحساب ودنى الأجل، ولازال الناس في تلك الغفلة، ثم يقول الله تعالى عن تلك اللحظة التي ينكشف فيها الغطاء:{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ} (ق، 22) غافل أنت عن كل ما يحصل لك، مسوف ظان أنك ستعمر طويلا،وهمك لذة يومك، يقول الله عز وجل:{أَفَلَا يَعْقِلُونَ}(يس، 68) ويقول: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ}(النساء، 82).

وأحد الأسئلة التي نبحث عن إجاباتها في هذه الدرس "إلى أين تريد أن تصل؟ وما هي وجهة الوصول؟

وقصة بشر الحافي المعروفة التي حكيتها لكم مرارا وتكرارا، حينما كان في سهرة غناء وطرب، وجاءه رجل وطرق الباب، فقال: عبد أم حر؟ وراحت الجارية تنقل له ما قال، فهرع مسرعا إليه وهو حاف، ويقول له: يا سيدي يا سيدي أعد ما قلت، فقال: ضربت الباب وسألت صاحب البيت، حر أم عبد؟ فقالت: بل حر، فقلت: لو كان عبدا للزم أدب العبودية، فبكى بشر ومرغ رأسه في التراب، وقال: لا بل عبد، بل عبد بل عبد، في هذه اللحظة حينما يدرك العبد أنه مجرد عبد، وأنه ليس بهواه يبقى غارقا في غيه ولا يتحرك قلبه ليتخذ قرارا بالتوبة، فهناك من يتوب من ترك الصلاة، وهناك من يتوب من تأخير الصلاة، وهناك من يتوب من عدم الخشوع في الصلاة، وهناك من يتوب من عدم حضور قلبه في الصلاة، فالتوبة مقامات وكل واحد منا محتاج لها.

والتوبة من صغائر الذنوب، التي كان يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعائشة عنها:[إياك ومحقرات الذنوب فإنهن ما اجتمعن على الرجل أهلكنه] وقال:[كقوم نزلوا في واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم] [8]فهذه النار لم تشتعل من حطب، بل من أعواد صغيرة.

النقطة الثالثة:

نحن بحاجة للتوبة لنرتاح،يقول الله عز وجل:{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}(طه، 124) والحياة دون الله كئيبة، والحياة دونه عز وجل مظلمة وموحشة، ولذلك قال السلف: "**مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها**" قالوا: وما أطيب مافيها؟ قال:"معرفة الله عز وجل، وذكره" وقد قال هذه الكلمة وهو في كوخ فقير معدوم،

ولهذا لذة الدنيا بأن تكون مكتفيا بالله عز وجل، مملوءًا بمعرفته وبحبه والشوق له، مسكين من يتنافس على هذه الدنيا وهو فارغ من حب الله والشوق له والرجاء والخوف منه، ويقول في كلمة أخرى: "**لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف**" ،والبعيد عن الله عز وجل يعيش حياة الضنك، ولا يعرف أن هناك حياة أفضل، فهو مشغول في دائرة ذنوبه ومعاصيه، وهذه يسمونها دائرة الراحة، فما إن يأتيه أحد ويهدم له دائرته بنصحه، يرتبك ويرفض الخروج من دائرته، ولو سألت نفسك في آخر اليوم هل أنت سعيد؟ لو بحثت في قلبك جيدا ستعلم ألا طعم للسعادة في معصية أبدا،وهذا قضاء الله الذي قضاه، قضى ألا يجعل سعادته في معصية أبدا، فلا يستطعمها عاص لله عز وجل، أما الذي لا زال في قلبه شيء من الحياة، ولا زال في قلبه شيء من تأنيب الضمير، فلا يمكن أن تستطيب له المعصية، ولذلك نهرب للتوبة من هذا الشعور.

قال الله عز وجل: {هُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}(الفتح، 4) ويقول: {أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ}(الرعد، 28)ويقول:{وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}(محمد، 2)ويقول:{رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا۟ عَنهُ}(المائدة، 119) بكم يشتري أصحاب نوبات الهلع والارتباك والاكتئاب صلاح البال والرضا والسكينة؟ فهذه كلها لمن عاش مع الله عز وجل، ومن تاب إليه، ولاذ في حماه، فقد قضى الله عزوجل له بهذه الأمور كلها، فإذا ما نزع الله من قلبك السكينة فلا تسأل عن رجفة القلب، وإذا ما نزع الاطمئنان فلا تسأل عن القلق، وتأتيه كل مباهج الحياة فلا يستطيبها.

قلّب في صفحات القرآن كيف شئت، وابحث عمن رضي الله عنهم ورضوا عنه، وعن صفات المؤمنين، ولذلك يجب أن تكون قراءتنا للقرآن ليست قراءة عادية، بل قراءة تُستفتح بها قلوبنا، والقرآن هو المنهج والمعلم، وهذا ما يثبته أولئك الذين يقبعون تحت البيوت المهدمة، ووابل القنابل والنيران، فالله إذا لم ينزل في قلبك السكينة فمن سينزلها؟ وإذا شعر بالرضا والسعادة فمن سينزعها؟ من سيصلح بالك ويهديه؟ومن سيجعل لك السكينة والاطمئنان والراحة حين تقوم وحين تنام إلا الله عز وجل.

8صححه الألباني

قال الله عز وجل:{وَأَنِ ٱستَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا}(هود،3)، أليست هذه أقصى الأمنيات؟ أن تعيش حياة تتمتع بها، ولا تجازى عليها إلا بالحسنى، فتوبتك وعيشك بعلاقة طيبة مع الله، لا يعني أن حياتك ستكون كئيبة، معدومة السعادة، وهذا ظنك أنت، لأنك تعيش في دائرتك ولا تعلم ما بخارجها، إنما يتكفل بإمتاعك متاعًا حسنًا، فلن يمتعك أحد إلا الله، ولن تكون قادرًا على أن تمتع نفسك دونه، إذن ما الذي يحول بينك وبين التوبة؟

سرد ابن القيم -رحمه الله- في كتاب الوابل الصيب عن الذنوب والمعاصي وأضرارها، أكثر من اثنين وخمسين ضررًا من أضرار الذنوب، منها: الحرمان من الرزق، والوحشة في القلب، والوحشة تجاه الخلق، كالرهاب الاجتماعي والقلق من مقابلة الناس، وهذا من عواقب الذنوب أيضا، وضعف البدن والوهن، فلا تدري سبب ضعفك، وحرمان العلم فلا يعرف الصحيح من الخاطئ، قال الله عز وجل:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجعَل لَّهُۥ مَخرَجا* وَيَرزُقهُ مِن حَيثُ لَا يَحتَسِب}(الطلاق، 2-3) ،هذه هي القاعدة، فالذي لا يتقي الله لن يجعل له مخرجا، ولن يُرزق لأن الله جعلها مشروطة،وقال الله عز وجل:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجعَل لَّهُۥ مِن أَمرِهِۦ يُسرا}(الطلاق، 4) والذي لا يتقي الله تتعسر حياته، واللذة التي تصاحب الذنب لذة وحلاوة مؤقتة، والوحشة التي تليها تطول وتشتد، فما الذي ما زال يربطك بهذا الذنب؟

يقول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-:"تارك الصلاة يحتاج إلى توبة، ولا يكون قضاؤه كمن نام عنها"وقد قال رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: [العهدُ الذي بيننا وبينَهم الصلاةُ، فمَن تركَها فقد كفر] [9]

وهذه كبيرة من الكبائر، وهناك من يجرب كأسا أو كأسين، فأي لذة وحلاوة وهناك عقاب أخروي ينتظرك.

مر النبي -عليه الصلاة والسلام- بقبرين، وسمع صوت عذابهما، سمع صراخهم في داخل القبر وهم يعذبان، فسأل النبي -عليه الصلاة والسلام- عن أصحاب القبور فذكروا له، فقال -عليه الصلاة والسلام-:[إنهما ليعذبان] [10]

نمر بالقبور ونراها صامتة لا شيء سوى الحجارة، ولا نعلم من المعذب والمنعم فيها، ولا نعلم كيف سنكون عندما نوضع فيها.

وهذه الذنوب من الصغائر، فأحدهما يمشي بالنميمة فينقل الكلام بين الناس، والآخر لا يتنزه من البول، وهناك من لا تهمه الطهارة فلا يأتي أسبابها، ولا يتنزه من البول بحجة عدم وجود الماء مثلا، فلهذين العملين سمع النبي عذابها في القبر، ولو وضعنا قائمة لذنوبنا، فكم من كذبة وغيبة ونميمة، وكم من سوء ظن وكم، وكم، فمن نحن حتى نظن أننا لسنا بحاجة للتوبة؟

ومن أخطر أضرار ترك التوبة ناهيك عن حجب الرزق والتوفيق ويسر الحياة، أنها تغير من نمط تفكيرك، وما ضل قوم إلا أوتوا الجدل، فإن أذنب الذنب الأول يشعر به، ثم يأتي بالذنب الثاني فيحسبه قليلا،ولكن ليس كالذنب الأول، وأما

9صححه الألباني

10أخرجه البخاري

لما يذنب الذنب رقم خمسين فلن يحس به، بل ويصبح باحثا عمن يحلل له ذنبه الذي يفعله، ولو لم يجد لأفتى به من عنده، أو أن الله غفور رحيم لن يعذبني ولن يحاسبني.

قالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ- يقولُ: [تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ،حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ] [11] لم يعد يرى منكرا ولا معروفا، فالمنكر يراه معروفا، والمعروف منكرا، ويصبح من إنسان خائف راجٍ رحمة ربه في ذنبه، إلى إنسان داعٍ للذنب، وهذه من أخطر عقوبات الذنوب، فيجب على الإنسان أن يضع في باله التوبة حالا، لأنه إن لم يلحق فسيخسر، وذاك أن أبواب التوبة ستُغلق.

وهناك بابان، باب يشترك فيه كل الناس، يوم تطلع الشمس من مغربها، فيُغلق باب التوبة ذاك، وباب لك أنت تختلف به عن الآخرين، ويُغلق عند الاحتضار، وعندما تحتضر الروح، فمن هذا الذي يستطيع أن يشهد بأنه لا إله إلا الله؟ يقول الله عز وجل: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}(إبراهيم، 27)

باب التوبة مفتوح إلى أن تطلع الروح وتخرج من الجسد، ولو أردت العودة بعد ذلك حتى تتوب لم تستطع، يقول الله عز وجل: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لعلّي أعمل صالحًا فيما تركتُ}(المؤمنون، 99) ويرد الله عليهم بحرفين فيقول عز وجل:{كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}(المؤمنون، 100)

وهذه كلمة مخيفة ومؤلمة، يصرخ الإنسان ويتوسل، كانت نيته طيبة ولكنه كان مسوفًا، وخطؤه أن لم يستغل تلك الأبواب المشرعة الاستغلال الأمثل، وهذا يكون في القبر قبل أن يأتي يوم القيامة،ويقول الله تعالى في آية أخرى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}(سبأ، 54) فيُحال بين الميت وبين ما يشتهي، وقد تظن أن ما يشتهيه الميت بعد موته الرجوع لأهله، بل من يحضره الموت لا يتمنى إلا التوبة، فيتمنى العودة لدقائق يقول فيها "يارب تبت إليك" فيتوب عليه.

والتوبة أصلا ليست فكرة بحاجة للإقناع، هي كرم إلهي ونعمة محضة، ومن فضله وجوده عز وجل أن فتح لنا هذا الباب، ولم يغلق علينا على غدراتنا وفجراتنا وسيئاتنا، ولم يسقطنا الله من عباده كما نفعل في بعضنا البعض، فمن يخطئ في حقي أسقطه من حياتي، ولا يلزمني فيعتزل ما يؤذيه، والله عزو جل لا يفعل هذا بنا، بل يُبقي أبوابه مفتوحة لنا، وأعطانا الصلاحية للرجوع في أي وقت، يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: [إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسُطُ يدَه باللَّيلِ ليتوبَ مسيءُ النَّهارِ، ويبسُطُ يدَه - يعني بالنَّهارِ - ليتوبَ مسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ من مغربِها] [12]ينزل الله يوميا في الثلث الأخير، ويقول هل من مستغفر فأغفر له، وهل من تائب فأتوب عليه، وهل من سائل فأجيبه، ونحن غارقين بنوم أو بسهرة مليئة بالمعاصي ونضيع هذا المقام.

11صححه الألباني

12أخرجه مسلم

وقد يقول قائل إن الله لم يأذن لي حتى أتوب، ولو أذن لتبت، وهذا ما قاله المشركون، قال الله تعالى في كتابه: {لَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} (الأنعام، 148) فهل تقول هذا في الرزق والوظيفة؟ أتقعد في بيتك وتنتظر رزق الله؟ أم نسعى ونعلم جيدا أن لكل نتيجة سببًا فنسعى لنرزق ونتعلم لننجح، فوجب علينا السعي للتوبة،

وفي قصة أصحاب الكهف في سورة الكهف التي نقرأها كل جمعة، أولئك الذين لم يجلسوا في مكانهم وقالوا ياربنا فقط، بل قال الله عز وجل عنهم من بداية القصة: {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ربنا}(الكهف،14) وهذه الكلمة "قاموا" أُلفت فيها المؤلفات، أن هؤلاء الفتية لم ينتظروا المدد من الله، و تلك اللحظة الفارقة، فالتوبة بعد فوات الأوان هي توبة كاذبة، لأنها توبة عاطفة وحماسة، والدين لا يأتي بالحماسة فقط، بل هي قرار عقلاني عاطفي إيماني عقدي لتغير حياتك.

يقول الله عز وجل: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}(التكوير، 29) ولكن الخطوة الأولى تأتي منك، وفي سورة الفاتحة التي نقرأها يوميا نقول: "إياك نعبد وإياك نستعين" وفي الفاتحة أسرار تنقلك لعالم آخر، ففي كل ركعة نحن نعلنها صراحة أن ياربي إياك نعبد وهي الخطوة الأولى التي تبدأ من عندنا، وإياك نستعين فلا نستطيع الثبات على العبودية دون الاستعانة بك، ولذلك لا تنتظر التوبة أن تأتيك، لا تنتظر تلك الكلمة المؤثرة واللحظة الدرامية، وقد لا تأتي تلك اللحظة الفارقة ويضيع عمرك كله بانتظارها، يكفيك القرآن كي تعود،فتدبره كافٍ لأن يجعلك في لحظة تأثر، وتأمل أعداد الأجانب غير المسلمين، كيف يقرؤون القرآن في هذه الأحداث، وكيف يقفون على الآيات آية، آية، يستلذون بها، وقد قالت إحداهن إنها من ثاني سورة قرأتها وجدت إجابات لكل استفساراتها عما يحدث، فلا عجب أن المسلمين هم الأقوى، وكل هذا وهم يقرؤون الترجمة، ولم يقرؤوه بجمال عربيته، ولم يقرؤوه كما أنزله الله تعالى.

قال الرسول -صلى الل عليه وسلم-: [إنَّ عبدًا قتلَ تسعةً وتِسعينَ نفسًا ثمَّ عرضَت لَهُ التَّوبةُ، فسألَ عَن أعلمِ أَهْلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ فأتاهُ فقالَ: إنّي قتَلتُ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فَهَل لي من توبةٍ؟ قالَ: بعدَ تِسعةٍ وتسعينَ نفسًا قالَ: فانتَضَى سيفَهُ فقتلَهُ، فأَكْمَلَ بِهِ المائةَ، ثمَّ عرضَت لَهُ التَّوبةُ، فسألَ عن أعلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ فأتاهُ فقالَ: إنّي قتَلتُ مائةَ نفسٍ، فَهَل لي من تَوبةٍ؟ فقالَ: ويحَكَ، ومَن يحولُ بينَكَ وبينَ التَّوبةِ؟ اخرُج منَ القَريةِ الخبيثَةِ الَّتي أنتَ فيها إلى القريةِ الصَّالحةِ قَريةِ كذا وَكَذا، فاعبُدْ ربَّكَ فيها، فخرجَ يريدُ القريةَ الصَّالحةَ، فعرضَ لَهُ أجلُهُ في الطَّريقِ، فاختَصَمت فيهِ ملائِكَةُ الرَّحمةِ وملائِكَةُ العذابِ، قالَ إبليسُ: أَنا أولى بِهِ، إنَّهُ لم يعصِني ساعةً قطُّ، قالَ: فقالَت ملائِكَةُ الرَّحمةِ: إنَّهُ خَرجَ تائبًا] (13)

وهذه القصة المعروفة للرجل الذي تاقت نفسه واشتاقت للتوبة، لأنه لا لذة في المعصية، في كل مرة نحاول الهروب لننسى ولنمتع أنفسنا هروبا مما نحن فيه، سينقلب الأمر علينا ويزداد الأمر تعاسة، لأنه لا يمكن أن تسعد إلا بالقرب من الله، قال ابن القيم -رحمه الله-: "إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، ووحشة لا يزيلها

13صححه الألباني

الإقبال عليه" وهذا ما فطر عليه البشر، فالسؤال الذي ينبغي أن يُسأل ليس لماذا نتوب؟، بل ما الذي يؤخرك عن التوبة؟ وما الذي يحول بينك وبين التوبة؟

من يريد أن ينزل من وزنه مثلا، يجب أن يمر بخطوات حتى يصل للنتيجة التي يريدها، كأن يتبع حمية مثلا، وأن يلتزم بتمارين معينة وقائمة طويلة بغية التغير من شكل إلى آخر، فعندما نتكلم عن التوبة، نحن بحاجة إلى سلسلة من التغييرات أيضا، نحن نتكلم عن ذنوب وليس ذنبا واحدا، وأنت تريد أن تنقل نفسك من مجرد عبد لله، إلى عبد وفق مراد الله عز وجل، ونرى ذلك فيمن يسلم حديثا، حيث يكون في حياة مختلفة تماما، وبمجرد قوله للشهادة، يترك الشرب والغناء، ويصلي ويصوم، فيأتي خمسين خطوة في يوم واحد، وهذا هو التغيير، وهذه هي التوبة، ولاتكون بالتدريج أبدا، فإذا ما أردت التوبة ذهبت لله من كل شيء، هي لحظة يقلب فيها كيانك كله، ولن ترضى بعدها أن تكون في المنطقة الرمادية، إنما تريد حياة نقية في حمى الله، ووفق مراده عز وجل، والحياة وفق مراد الله ليست حياة زهد، بل هي الحياة الطبيعية.

عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قبل إسلامه اشتهر بقوته، وكان يصارع الصبيان في الطرقات ويغلبهم، كان يمكن لحياته أن تنتهي بأنه بطل الأبطال، وأشجع الشجعان، ونقطة وانتهى السطر، ولكنه حينما تاب وأسلم، تغيرت حياته إلى أن أصبح عمر الفاروق، الذي يتحدث عن عبقريته كل العالم، عمر كان في خده خطين من النعل خوفا من الله تعالى، فالتوبة تغير حياتك وتحولها من حياة بهيمية إلى تلك الحياة التي تكون فيها صاحب أثر ونفع.

والقضية ليست في ثقل التغيير، وكم من الخطوات ستخطو، بل إن قررت تغيرت القناعات وسهلت عليك الباقي، أحد أقاربي ذوي الوزن الزائد، حاولت أمه بكل الطرق في سبيل إنقاص وزنه ولم ينقص، وفي سنة من السنين قرر الشاب أن يتغير، فلما قرر تغير وخسر من وزنه أكثر من أربعين كيلو، وتراه بعد هذا التغيير كيف ينظر لنفسه باشمئزاز وازدراء، كيف ترك نفسه على هواها، وهذا بالضبط مثلما يحدث للإنسان عند التوبة.

وهناك توبة من الصغائر والكبائر، وتوبة من أعمال القلوب، كسوء الظن، والحسد، وتمني زوال النعمة من الآخرين، وهناك توبة من إضاعة الوقت، فلا تظن أن الله لن يحاسبك على الوقت الذي أنت به، وعلى ما يضيع منه، وهناك توبة من خلاف الأولى، فلا يفترض بمن مثلك أن يقدم على هذا الذنب، وبعد عشر سنوات وقد أصلحت حالك وأصبحت قريبا من الله وتفعل كذا وكذا من الأعمال الصالحة، فلا ينبغي أن تقدم على هذا الذنب، ولا يفترض أن تضعف نفسك بهذه الطريقة من أجله، وهناك توبة من نظر الحرام، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: [يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم الواحد مائة مرة] [14] هذا وهو أعبد الخلق، وأحبهم إلى الله، أما نحن فننظر لأنفسنا بالكمال، وهذا يفصح عن شيء من العجب والرياء في داخلنا، وهذه بحد ذاته يحتاج إلى توبة.

14أخرجه مسلم

جاءت عائشة تسأل النبي -عليه الصلاة والسلام- عن قول الله عز وجل:{الذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة} قالت: يا رسول الله هم الذين يسرقون ويزنون؟ قال:[لا يا ابنة الصديق، هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ثم يخافون ألا يقبل منهم] ([15]) من أنت حتى تدل بعملك على الله! فيحمد الله أنه يصلي، وأن هذا العمل كافٍ، أو يشعر بأنه أفضل من غيره، نحن نستكثر العمل الصالح ونرى أنفسنا أفضل من غيرنا، فكيف نستكثر هذا العمل الصالح؟ ولو قمت الليل والنهار فكيف تستكثره؟ هناك من يفقد أبناءه الثلاثة، ويقول وهو مبتسم ليس بكثير لربي، فكيف نشعر أننا عملنا أعظم شيء في الدنيا بعبادة بسيطة؟!

وأخيرا أختم بشروط التوبة:

الشرط الأول: أن يكون هناك عمل وذنب تقلع عنه وتتركه ولا ترجع له:

والترك أن تقلع عن الذنب سواء في فعل محرم تأتيه، أو أمر واجب لم تفعله.

الشرط الثاني: وهذا هو الأهم، الإخلاص في التوبة:

بأن تتوب ابتغاء وجه الله تعالى، فلا تتوب لأجل الصحة، ومن أجل الرزق، وفتح الله عليك، أنت تتوب أولا من أجل الله تعالى سواء أعجبك أو لم يعجبك، ناسبك أم لم يناسبك.

الشرط الثالث: الندم على ما فات:

وهو الشعور بالحرقة، كيف فعلت هذا وكيف كنت على هذا،وحتى وإن عادت بك الذكريات فطابت لك لحظات الذنب، يجب أن توقف هذه المشاعر وتجعل لها حدًّا لأنك في عبادة، وتستدرك نفسك وتحمد الله على أن أنعم عليك وتبت، ولم يأخذ روحك وأنت على ذاك الذنب وعلى ذاك الحال.

والشرط الرابع والأخير: أن تعزم على ألا تعود:

وهذه حقيقة، ولا تعتبر التوبة إلا بعزمك عدم العودة إليها، وهذا الفرق بين التوبة والاستغفار، فأنت تستغفر لذنبك عسى الله أن يغفر لك خطأك، ولكن التوبة هي الوقوف والرجوع إلى مكان آخر، ولذلك قال الله عز وجل عن هؤلاء: {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ}(فصلت، 30) فتاب ثم استقام، أي أنه يعمل طوال عمره بعد هذه التوبة على أن يستقيم، بأن يتحرى عدم الاعوجاج يمينا أو يسارا.

وعلاقة الإنسان بالذنوب علاقة مد وجزر، فيهرب ويخاف منها وهي تجذبه وتتزين له وتناديه، فيضعف أمامها أحيانا إلى أن يسقط، أو أن يهرب منها ويقاومها ويجاهد نفسه على عدم إتيانها، ويقوي إيمانه لئلا يقترب منها ابتداء، ومتى ما عرف الإنسان هذه الحقيقة، عرف مما سيتوب، فلا يتوب من الذنب فقط، بل من كل ما يقربه إليه، فإذا

15صححه الألباني

كانت هذه المجموعة تقربك من ذنب ابتعدت عنهم، وإذا كان ذلك المكان الفلاني أو البلد يؤجج فيك القرب من الذنوب، فلا تذهب، فكل إنسان صادق في توبته سيقطع كل ما يغذي حنينه للذنب، وهناك أمور لا يكون للإنسان الخيار فيها فيقطع بقدر ما يستطيع، قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: [كل ابن ادم خطاء] ([16])فالخطأ ملازم للإنسان، ولكن يجب ألا ينتصر عليك، وأن تسمح له بأن ينعطف بحياتك.

فعندما يكون الإنسان مملوءا بالعمل الصالح، لن يجد الشيطان مدخلا إليه، بل سيخجل منه لأنه حالة هذا الإنسان من عمل صالح إلى عمل صالح آخر، وينام على ذكر ويستيقظ على ذكر، وحينما نعرف مثل هذا نعلم حاجتنا للتوبة.

وأخيرا يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي -حفظه الله-: "**تهزم الأمة بذنوبها، ومن جاهر بعصيان الله زمن جهاد العدو، فإنه يقف مع العدو وإن لم يشعر، في الطاعات سهام النصر، والمعاصي سهام الهزيمة**"ونحن الآن في زمن جهاد، فاسأل نفسك أين أنت من هذا السيل وابدأ بك أولا.

سألت عائشة -رضي الله عنها- حينما حدث النبي -عليه الصلاة والسلام- بالعذاب الذي ينزل على هذه الأمة،فقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال النبي -عليه الصلاة والسلام-:[نعم، إذا كثر الخبث] ([17])لما يكثر الخبث في أم محمد -صلى الله عليه وسلم- نكون كلنا من ضمن الذين يعملون المعاصي، فحذار من الانسحاب والاعتقاد أن توبتك لن تؤثر بهذا العالم.

أسأل الله أن يرزقني وإياكم توبة نصوحا، وأن يجعل من توبتنا نصرة لدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين، وأن يحبب إلينا الإيمان، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، هذا والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

16حسنه الألباني

17صححه الألباني